

٣ - هل من اتحال

في الأدب الانكليزي ؟

للسيد جريس القسوس

- ٦ -

مه هو طوماس تشارترن ؟ Chatterton

وُلد هذا الشاعر في برستل ، في ٢٠ نوفمبر سنة ١٧٥٢ ،
بعد وفاة أبيه بثلاثة أشهر . وكان أبوه كاتباً بسيطاً في كاتدرائية
برستل ، يتقاضى منها راتباً زهيداً ؛ فات ولم يخلف لابنه تراثاً
مادياً يُذكر

دخل الشاعر مدرسة كولستون Colston الابتدائية حيث
قضى ثمانين متتالية ، نظم في خلالها بعض قصائد ، منها واحدة
نظّمها سنة ١٧٦٤ بعنوان « وصية الكافر » Apostate Will

ثم من له أن يقصد عمه حارس كنيسة القديسة ماري في
« ودكلف » Redcliffe لعله يبيد في كنفه طمأنينة وعزاً . كانت
تلك الكنيسة على جمال فن بديع ، قن الشاعر وأذهله ، فاش
بانحلال في المصور التي أبدعت ذلك الفن الرائع . ليس هذا
لحسب ، بل عثر في خزانة الكنيسة على مخطوطات أدبية قديمة ،
وسجلات دينية تعود في تاريخها إلى المصور الوسطى ، فكان
الداعر الصبي في خياله وشعوره نهياً بين هذين التراثين الخالدين :
التراث الفني البديع ، والأدبي الرائع . فلم يمش في الحقيقة في
عصره إلا بالجسد ؛ أما روحه فقد كانت بكليتها في المصور الوسطى
وازوى تشارترن نفسه في تلك البيئة الروحية الهادئة ما كفاً

على بحث تلك الآثار الأدبية ومطالمتها . وبقي هذا شأنه
لا يعرف من أمره شيء ، حتى سنة ١٧٦٩ حين فاجأ العالم الأدبي
بنشر قصيدة « الينور ويوغا » « Elinore & Juga » ، في مجلة
Town & Country Magazine ولقد نظم تلك القصيدة في حين لم
يتجاوز فيه عمره الثانية عشرة ؛ وأطلع عليها رئيس مستنقى

« كلتن » ، مدّعياً أنها من آثار شاعر من شعراء القرن الخامس
عشر . أما اسم ذلك الشاعر الخيالي فالكاهن طوماس رولي
Rowley عاش في مدينة برستل ، في عهد الملك ادوارد الرابع
وكان - على ما ادعى تشارترن - صديقاً لوليم كاننغ
ووليم كاننغ هذا شخصية تاريخية ؛ كان تاجراً مثرباً ،
يتعاطى هذه المهنة في برستل - بلد تشارترن نفسه - ؛ وكان
من غواة الأدب وأعوانه . وادعى تشارترن أن الكاهن رولي كان
يؤمّه ليتلو في حضرته أشعاره ، فيلق منه كل حذب والثقات .
وتقوم بطولة كاننغ على الفضل والتقوى ، ومثانة الخلق ، وقوة
العزيمة ، والمحافظة على المبدأ ؛ لهذا لما أرغمه الملك ادوارد على
تزوج إحدى الغانيات لغاية في نفسه ، رأى كاننغ نجاته في الهرب
من وجه ذلك الملك المسوف ؛ فقصده كلية وستبري Westbury
في مقاطعة جلوسترشاير Gloucestershire ، مفضلاً الحياة بجانب
الكاهن الشاعر على التقرب من الملك العائن الجبار

درس تشارترن هذه الحوادث درّس الولوج للفن ؛ وألمّ
بها اللما صيحياً ، واختلق قصبا كبيراً منها . ومعظم قصائده تدور
حول هذه الحوادث ، الصحيح منها والمخترق . ويتخلل اسم
كاننغ كثيراً من أشعاره التي نظّمها ، وعزّاهها إلى الشاعر رولي
مثل مأساة برستو Bristowe Tragedie ، أو قصيدة The Accounte
of W. Canynge's Feast

ادعى تشارترن أن يراع ذلك الكاهن الخيالي ديجت هذه
القصائد وغيرها ؛ وأنه خلفها في مخطوطات أودعت خزانة
كنيسة ردكلف . هذا كل ما يقوله تشارترن عن رولي ؛ ولم
يذكر عنه أكثر من ذلك ، فيعزز بذلك ادعائه ، ويقوى حججه
وفي سنة ١٧٦٧ ، عين الشاعر كاتباً في بعض دوائر المدل
لكنه رغم ذلك كان له متسع كاف من الوقت للمطالمة والانتاج
والنشر خاصة في مجلة Felix Farley's Journal

وأشهر ما ظهر له في ذلك الحين قصيدة اسمها « أنشودة إلا »
The Song of Aella وهي مأساة تمثيلية فيها ابتكار ، وغنائية
lyricism ساحرة ، وروعة فنية سامية . « ومأساة برستو »
Bristowe Tragedie وهي من أجل مآسيه الشعرية القصصية
وأروعها موضوعاً وأسلوباً ، وتنتهي بأعدام البطل بودون Badwin

تلك الكلمات الرائعة ، التي أصبحت مثلاً سائراً بين الشعراء وهي :
 • I thought of Chatterton, the marvellous Boy,
 The sleepless Soul that Perished in his Pride. •
 ومعنى ذلك :

« لقد فكرت طويلاً في ذلك الصبي العجيب بل في تلك الروح
 اليقظة التي قضت. أن شموخها وعزها »

والشاعر الشهير دانتي روزيتي Dante Rosetti يذكره مع
 أعظم شعراء الانكليز في Fine Eng. Poets

ولقد لاقى تشارترن في خريف سنة ١٧٧٠ من ضنك العيش
 وسوء الحال مادفمه مراراً إلى الانتحار ، حتى إنه كتب مرة
 وصية يني فيها بعزمه الأ كيد على الانتحار في أقرب الفرص ،
 شارحاً كما لأصحاب الجائزة له على التخلص من الحياة ، لكنه عدل
 عن ذلك لسبب ما ؛ فاستقال من وظيفته ، وقصد لندن حيث
 قضى نحو تسعة أسابيع ؛ ومن ثم توجه إلى هولبرن Holborne
 حيث صرف مدة انوزل في خلالها عن العالم وعاش عيشة
 تصوف وهدوء عميقين ؛ فتمكن بذلك من استعادة خيالاته ،
 وتصويراته الروحية الشائقة ؛ فامتشت روحه واطمأنت نفسه ،
 ورضى عن حاله تلك بعض الرضى ؛ فمولت له النفس الاستزادة
 من العيش ، لكنه ما علم أن اصطدمت الروح والسادة في
 ميدان نفسه ، فاحتدم النزاع بينهما احتداماً ؛ إذ أن فقره المدقع
 وعدم اقبال الصحف على نشر آثاره ، وشعوره بفضيحة أمره ،
 جميعها ملأت حياته كآبة وألماً ، وزادت عيشه ضنكاً ومضناً ؛
 فاستسلم لليأس والقنوط ، وماودته فكرة الانتحار ؛ لكنه عزز
 عليه الموت في ريمان الشباب ، فقاوم فكرة الموت ، وعقدانية
 على دراسة الطب مؤملاً من وراء ذلك سعادة وغبطة ذنيوية
 داعة ، فراسل أسدقاه يطلب المؤازرة ، لكنه ياء بالفشل ،
 فكانت تلك آخر خفقة في سراج حياته ، إذ عاد على أثر ذلك
 إلى صومته غازماً على الموت المحتم ، فتجزع الزرنخ ، بعد أن
 مزق كل ما عثر عليه من آثاره الأدبية غير المنشورة

وهكذا كانت حياته مراراً بين البؤس والهناء ، واليأس
 والأمل ، والقطاعة والطموح ، والموت والحياة ؛ حتى غلب
 البؤس في النهاية على الهناء ، وانصر لليأس على الأمل ، فانهار
 ذلك البنيان الروحي الرخيص تحت كاهل السادة ولما يبلغ

اذ اشمتم من الملك ادوارد معاندة وعصياناً . وفيها وصف بديع
 للبطل بودون اذ آثر الموت على معاندة الملك ادوارد والتلطف
 له والتجنب إليه . وفيها وصف بارع وقيق للوداع الحلو بين
 ذلك البعل وزوجه البار

ومن هذه أيضاً قصة شعرية تعشلية اسمها « الزهان »
 Tournament وأخر مثل « جودون » Goddwyn و « أنشودة
 الجبال » Ode To Beauty و « البرلمان » The Parliament و
 « معركة هاستنج » The Battle of Hasting و « أغنية للصداقة »
 Balade of Charitie وغيرها من المقطعات المنفرقة ، وهي كلها
 شبيهة بأشعار كيتس Keats الخالدة ، من حيث جمال الفن وقوة
 العاطفة ودقة التصوير . وجميع هذه القصائد تؤلف مجلداً
 كبيراً من الشعر ، يُجسج ونشر سنة ١٨٠٤ ؛ وتشارترن كان
 ينسب أم ما فيه إلى الشاعر رول

لهذا بينما كان العالم الأدبي ينهج في خطى بوب Pope وجونسن
 Johnson لأدوية الكلاسيكية ، كان هذا الشاعر الشاب يمد
 السبل النورية للإبتداعية Romanticism ، ذلك بأنه كان يعود إلى
 بتابع قديمة فيستقي منها نتاجه الأذني أو يستوحى منها
 عبقرية الخالدة ؛ فيعمل بذلك على نشر الميزات التي يختص بها
 أدب الإبتداعية

ولقد وجد شعراء القرن التاسع عشر في أدب تشارترن
 وحياته الرومانتيكية مرتعاً خصباً للخيال والروح ، فقد تأثر
 الشاعر كولردج Coleridge بأدبه إلى حد بعيد ؛ وهذا يظهر
 جلياً واضحاً في قصيدته المشهورة Christabel . ولكولردج هذا
 قصيدة بديعة ، اختصها برناء تشارترن اسمها Amonody on the
 Death of Chatterton . وقل مثل ذلك عن كيتس ؛ إذ يستدل
 من أهدائه قصيدته الخالدة Endymion إلى تشارترن أنه كان
 يستوحى عبقرته ، ويستمد نشاطه الأدبي من روح الشاعر الشاب .
 ليس هذا فحسب ، بل أقر غيرهما من الشعراء الإبتداعيين بنبرغ
 تشارترن ؛ ففكره شلي Shelley مثلاً في قصيدته (أدونيس)
 Adonais التي رثى بها كيتس في هداد الشعراء الذين قضوا في
 سعة الصبا ، ووردزورث Wordsworth لم يشأ إلا أن يقول فيه ،
 في قصيدته « الأملحلال والاستقلال » Resolution & Independence